مقدمة

اختلف المؤرخون فى تقدير أعمال محمد على الكبير بين مادح وقادح فأشار المادحون — شأنهم فى ذلك شأن كل المادحين للحكام على مر العصور — بما تم على يديه من اصلاحات ، واظهروه بمظهر البطل المغوار، والعبقرى الفذ ، والمصلح المستنير الذى تحمل أعباء الحكم فى مصر ، واعاد اليها حياتها وذاتيتها ، وحاول القادحون الحط من شأنه وشأن اصلاحاته والنظر اليها من خلال منظار أسود .

وحين تختلف الآراء حول ظاهرة تاريخية أو حدث معين فان الوثائق خير لغة للحديث ، وأفضل ما يرجح رأيا على آخر ، فكتابة التاريخ من واقع مصادره الأصلية كما هو معلوم تتيح للمؤرخ الالمام الدقيق بحقائق العصر الذى يدرسه ، وتجعل أمامه صورة الاحداث واضحة، وتضيف دلالات جديدة وموضوعية لبحثه ، وتجعله ينهج نهج الأسلوب العلمى الذى يحتم عليه ألا يعتمد على النقل عن الغير ، وانما يستقى النتائج من أوثق المصادر والأصول التى تجعله يقف على حقائق الأمور بلا ادنى شك أو مواربة .

فالوثائق هى المادة الخام التى تحمل روح العصر الذى كتبت فيه والتى تعطى الفهم الصحيح له ، وتفسر احداثه وربما كان لظهور وثيقة تاريخية جديدة أكبر الأثر فى تغيير مفاهيم خاطئة قد توارثها الآباء عن الاجداد والابناء عن الآباء فأخذت صورة الحقيقة على غير استحقاق أو تكون فيصلا فى الحكم على بعض الأحداث والظواهر .

ومن حسن حظ مؤرخى النصف الأول من القرن التاسع عشر ان طريقة محمد على فى الحكم والادارة استلزمت قدرا كبيرا من المضابط والمحاضر والخلاصات واليوميات والتقارير التى تمكنهم من تتبع المسألة

الواحـــدة من العامل الصغير الى المجلس الكبير الى مقر السلطان ، ومن القرية النائية الى عاصمة الحكم [١] .

وموضوع الدراسة التى نقدمها عن وثائق « ديوان التجارة والمبيعات» فى عصر محمد على تعتبر ضرورية وهامة لدراسة تاريخ مصر الاقتصادى خلال هذه الفترة خصوصا وانها تشمل وثائق يمكن اعتبارها من أبـــرز الوثائق الرسمية فى تاريخ مصر الاقتصادى فى النصف الأول من القـــرن التاسع عشر ، والذى شهدت مصر خلاله تطورا اقتصاديا واضحا بفضـــل جهود محمد على الدائبة فى الارتقاء بالنواحى التجارية والصناعية والزراعية فى مصر ، ونجاحه فى تذليل معظم الصعوبات التى واجهته حتى أصـــبحت له السيطرة الكاملة على جميع وسائل الانتاج والتـــوزيع فكان الـــزراع والصانع الوحيد بلا منازع [٢] ، كما أنه كان أكبر تاجر فى مصر .

وتتمثل أهمية وثائق هذا الديوان فى أنه يقـــدم لنا صـــــورة حية بالاسانيد والأرقام الرسمية عن طبيعة الحياة التجارية فى مصر فى عصـــر محمد على هذا بالاضافة الى أنه يرســـم لنا صورة العلاقات بين كافـــة الادارات والدواوين المعنية بتنظيم حركة الحياة الاقتصادية فى تلك الفترة.

ووثائق الديوان موضوع البحث توجد فى دار الوثائق القومية بقلعـــة صلاح الدين بالقاهرة ضمن مجموعة أخـــرى من الوثائق تحت عنـــوان « وثائق الانتاج » وتشمل أحد عشر ديوانا [٣] يرمز لها بالحرف (ج) .

---

(١) من مقدمة محمد شفيق غربال لكتاب ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا ١٨٤٨ — ١٩٤٨ ، القاهرة — الجمعية الملكية للدراسات التاريخية

(٢) للتفاصيل أنظـــر :
Crouchley : Economic Development of Modern Egypt.

(٣) هذه الدواوين هى : —
١ — ديـــوان المـــالية .
٢ — ديـــوان الايرادات .
٣ — ديـــوان الأخشـــاب .
٤ — ديـــوان تجارة ولى النعم .
٥ — ديـــوان دائرة محمد ســـعيد .

والديوان موضوع بحثنا ينقسم بدوره الى ثلاثة عشر قسما [٤] كل قسم منها يتكون من عدد من السجلات وصل مجموعها الى خمسة وخمسين سجلا ، يضاف الى ذلك انه توجد مجموعة من المحافظ بدار الوثائق بالقاهرة

= ٦ — ديوان مجلس تجار مصر .
٧ — ديوان تجارة مصر .
٨ — ديوان الجفالك .
٩ — ديوان الدائرة السنية .
١٠ — ديوان دائرة الهامى باشا .
١١ — ديوان التجارة والزراعة والمبيعات .

(٤) القسم الأول « مايسترو ديوان المبيعات » ويتكون من ثلاثة سجلات .
— القسم الثانى « صادر مجلس الزراعة » ويتكون من أربعة سجلات .
— القسم الثالث « صادر ووارد » ويتكون من ثلاثة سجلات .
— القسم الرابع « قيد التحريرات الصادرة من ديوان التجارة » ويشمل ثلاثة سجلات .
— القسم الخامس « صادر نظارة التجارة والزراعة » ويتكون من ثلاثة سجلات .
— القسم السادس « وارد ديوان التجارة والزراعة » ويشمل ثلاثة سجلات .
— القسم السابع « شطب التحريرات الواردة » ويقع فى سبعة سجلات .
— القسم الثامن : ويشمل ثلاثة سجلات .
— القسم التاسع « دفتر مصروفات الابعدية » ويشمل سجلا واحدا .
— القسم العاشر « صادر ووارد التجارة والمبيعات » ويشمل ثمانية سجلات .
— القسم الحادى عشر « جرنال ديوان الخديو تركى » ويشمل ثمانية سجلات .
— القسم الثانى عشر « قيد التحريرات تركى » ويشمل ستة سجلات .
— القسم الثالث عشر « قيد الأوامر العلية والافادات تركى » ويشمل ثلاثة سجلات .

أيضا تحت عنوان محافظ « ديوان التجارة والمبيعات » عـــددها ثلاثـــة وثلاثون محفظة تشمل فى معظمها عصر محمد على [٥] .

ولمـــا كانت هذه المراسلات تضفى ابعادا واقعية وجديدة على حقيقة الأمور الاقتصادية فى مصر فى تلك الفترة وتكمل ما هـــو موجود فى سجلات الديوان فقد اشتملت هذه الدراسة على الوثائق الموجودة بسجلات الديوان ومحافظة معا .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل محتويات وثائق هذا الديوان بقى أن نذكر شيئا عن ماهية هذه الوثائق ولغة كتابتها . الواقع أن هذه الوثائق عبارة عن الأوامر والتعليمات الصادرة من محمد على الى بوغوص يوسفيان بك ناظـــر تجارته [٦] والى كبار موظفيه ، ورؤساء دواوينه ومعاونيه المكلفين بتنفيذ سياسة الحكومة الاقتصادية ، وردود هؤلاء على محمد على ، وان هذه الوثائق كتبت فى معظمها بالتركية والقليل منها كتب بلغة عربية بسيطة أقـــرب الى العامية منها الى الفصحى ، كما أن بها مصطلحات وكلمات ليست من العربية فى شىء ، بل هى أقـــرب الى التركية واليونانية منهـــا الى العربية مما يحمل الباحث أعباء شاقة فى فك رموز الكثير منها خصوصا وأن بعض هذه الوثائق كتبت بخط ردىء .

أما عن الوثائق المكتوبة بالتركية فقـــد ترجمت الى العربية فى عصر الملك فؤاد الذى شجع المؤرخين ، وخصوصا الأجانب منهم على التأريخ لاسرته ، وتسهيلا لذلك فقـــد عنى بترجمة الوثائق التركية الخاصـــــة بتاريخ هذه الأسرة خصوصا وثائق عصرى محمد على والخديو اسماعيل وعن تناولنا لوثائق هذا الديـــوان التى تســـجل حركة التطورات الاقتصادية

---

(٥) يوجد ضمن وثائق هذه المحافظ والسجلات مكاتبات خاصة بعصر كل من عباس الأول وسعيد واسماعيل ، ولكنها قليلة ولا تشكل مـــادة متكاملة .

(٦) ولد فى أزمير عام ١٧٦٨ ، وبرع فى عدة لغات نطقا وكتابة منها الارمينية والتركية واليونانية والفرنساوية ، وعمل فى شبابه بالتجارة ، ثم هاجـــر الى مصر وأقام بها ، وكان موضـــع ثقة محمد على ، ومرجـــع مشورته ، وقد ظل فى خدمة الحكومة المصرية حوالى ٤١ سنة .

والاجتماعية فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ينبغى لنا أن نذكر اننـــا لم نهدف عن طريقها الى دراســـة تاريخ مصر الاقتصادى فى عصر محمد على تفصيلا بل كان جل الاهتمام بابراز أهم ما تعرضـــت له هذه الوثائق من معلومات يمكن عن طريقها سد ما تركته المؤلفـــات التى تعرضت لهذا الموضوع من ثغرات .

وطبقا لذلك امكننا تقسيم موضوع هذه الدراسة الى العناصر الآتية :

أولا : أثر اهتمام محمد على بمحصولى القطن والأفيون على تطوير حركة مصر التجارية بينه وبين التجار الأجانب ، ونظام المكاييل والموازين والجمارك ، وتداول العملات الاجنبية داخل مصر والتلاعب فى أسعارها وتزييفها ، وأسباب انشاء مصرف بالاسكندرية لتقدير أثمان المســـكوكات المتبادلة وتحديد أسعارها هذا بالاضافة الى ما أشارت اليه وثائق الديوان عن الصناعة وأسباب اهتمام محمد على بهـــا .

ثانيا : كيف كانت علاقات محمد على التجارية مع كل من السلطان العثمانى والأوربيين ، وما هـــو أثر هذه العلاقات على النواحى السياسية والطريقة التى اتبعها محمد على لتفضيل مصالحه ومصالح ولايته قبل اى شىء آخر ، والخلافات التى حدثت بين الأجانب فيما بينهم من ناحية وتلك التى حدثت بينهم وبين المصريين من ناحية أخـــرى ، وموافقة محمد عـــلى على تشكيل محكمة التجارة الأوربية للفصل فى هذه الخلافات .

ثالثـــا : كيف كان محمد على يدير علاقاته مع موظفيه ، وهل نجحت طريقة استعماله للشدة مع المخطىء ، وتشجيعه لأصحاب الهمم ، وهل كان يصدر قراراته وأوامره بمفرده أو يأخذ آراء ذوى الخبرة من موظفيه فيها قبيل اصدارها .

رابعـــا : ما هى آثار حروب محمد على على الاقتصاد المصرى ، وماذا عن تدهور أمور مصر الاقتصادية نتيجة لذلك لدرجة أن كانت تخصم مصاريف شراء الأسلحة من اثمان بعض المحاصيل ، وما هى المتاعب التى واجهها محمد على من قراصنة البحر الذين كانوا يتربصون لسفنه التجارية،

وما هى المحاولات التى بذلها من اجل تأمين سفنه ، ولماذا قام بتأجير بعض السفن الاجنبية للمساعدة فى نقل الامدادات لقواته الموجودة خارج مصر ، وما أسباب اهتزاز خزينة البلاد خصوصا فى أوقات الحروب التى خاضتها مصر فى بلاد الحجاز والمورة .

خامسا : ماذا عن تعرض وثائق الديوان لبعض مظاهر العادات والنواحى الاجتماعية والثقافية فى مصر فى عصر محمد على والتى من أبرزها دور الحلاقين والدايات فى عمليات الختان والتوليد ، ومهنة السمسرة ، وحالات السجون ومعاملة السجناء ، والفرار من الجندية ، وتعداد النفوس والاهتمام بالتعليم .

وفيما يلى نعرض لأهم هذه الموضوعات ، ولنبدأ بأولها :